فى مآتم الأشواق

للأستاذ محمد العلائى

[إلى طه حسين ، والمازنى ، والعقاد ، والزيات ، إلى الصديق سيد قطب ، إلى هؤلاء أولا ، إلى أدباء العربية ثانياً أقدم هذه الأوحة المشبوبة ، وهى : مواقد أشواق تسامت بلهيبها أوهام الليل ، وترامت على ضوئها مخاوف الرحيل ، فباركتها بدعائى ، وأحرقت فيها مواهبى ، ثم تنفس الفجر فعصفت بقداستها سخرية اليقين ، واختنق شيطانها بأريج السلام ... فارعت إليها واطمأنت بأقدامى] :

تذكرتُ أيامى ودارَ متاعبى
ومَشرق أحلامى ومَسرى مواهبى

تراءى لنا الماضى ولاحت معاهدٌ
تعلّيت أوهامى بها وتجاربى

ومأساتُنا الأولى هناك تنزلت
علىٌ بدار الشمس قبل النياهب

وراحت توافينى بكل كريهةٍ
وتقذف ألوان القذى بمشاربى

وتفجر ما بين الضلوع تزيفُها
لنغمة شادٍ أو لآهة نادب

لها كلَّ يوم فى الشروق مناحةٌ
وأوجع منها عند زحف المغارب

ظلام الضحى أبلى جديدى وعافنى
وبيّض فى شرخ الشباب ذوائبى

وأطفأ منى القلب فى ميعة الصبا
وبنّم أفراحى وأذوَى رغائبى

وحجّبنى بين اللدّات فكلهم
لعوبٌ وهذا منزوٍ غير لاعبِ

وأخرج من أدنى القلوب محبتى
فأمى لا ترجو بقائى ولا أبى

وأشهدُ أنى كنتُ نورَ عيونهم
وكنت عزيز الدار نجم الملاعب

ولكن امرأً والزمان أراده
فلست على أهل الزمان بعاتب

تناسيتُ إلا مجنتى ومواجعاً
تُقلّبها الساعات بين جوانبى

ورحلتنا الأولى ويوم تضاحكت
أمانى أساريرُ المنى والمطالب

ولاح رجاء واطمأنت مشيئتى
بطالع يمن فى جبين الكواكب

فأجمت أمرى لا أخاف على غدى
لقاء العوادى أو ركوب المصاعب

وخلفتُ أحباباً ورائى وأنفساً
يعزُّ عليها غربتى ومتاعبى

وتحنو على ضعفى وترحم جرأتى
وتخشى على حظى عثار المراكب

وقلت وداعاً وانتهجنا سبيلها
وسرنا بأرض الله ذات المناكب

وكانت ليالٍ ثم أشرف ركبنا
على شاطىء الصحراء مثوى العجائب

سلامٌ على دار المنايا وأهلها
من ابن سبيل أشعث الوجه شاحب

يروم الغنى فيها ويبغى كنوزها
ويرجو بها ظلا وضجعة لاغب

طلبتُ على جهل سواء سبيلها
وأنسيت حظى والتفاف المشاعب

وكلفنى ما لا يراد توهمى
وشفّت أحاسيسى بروق المغايب

وأشربت حب الخير حتى أضلنى
وشبّه معوجاً بآخر لا حب

وغشّى على عقلى فأكبرت نافها
وسُمْتُ البلايا رغبةً فى المكاسب

وران على نفسى سداها فعانقت
— لها الله — أمواج السراب المكاذب

وغايلها يمٌّ غرورٌ فأزلقت
بأتعس ثغر فيه أشأم قارب

أسائل مَنْ حولى وليسوا نواطقا
وليسوا سوى أشباح غرقى رواسب

وتُؤذِن بالرجمى نوايا عُبابه
وأين وما بالشط مرسى لراكب

أمامى سدود كالقضاء ومفزعى
إلى غُصص مشبوبة وكوارب

وأفنى السُّرى زادى ومائى ولم أجد
بها مستقراً واستدارت مذاهبى

وضاق بوَعثاء الطريق تفكرى
ومصّت شعورى موبقات السباسب

وضمّت على أدهى من اليأس أضلعى
وناءت بأثقالى ظهور النجائب

وأرّقنى خوف المصير ولم أعُد
أطيقُ الدياجى وارتجافَ الهواجب

فأخرجت من صحبى كريماً يودنى
وذا بصرٍ يومَ الشدائد ثاقب

وملّكته أمرى فكان دليلها
وسيرت ركبى خلفه غير ناكب

وسِرْتُ زماناً مُغمَض القلب سادراً
تُلِمُّ بى الذكرى وأحدو ركائبى

وأخشع أحياناً أحيّى مقابراً
دفنت بها أهلى وبعض صواحبى

وأسمع للصحراء جُنّت رياحها
وردّت على الموتى نُواحَ الأقارب

وأهوى مع الآفاق جسماً مفرغاً
وروحاً أتاه الموت من كل جانب

وبعد أعاجيب تراءت كنوزها
وراء ضباب كالدجى وسحائب

وأذّن حادي الركب : لا همّ نمهّ
ونادى بيوم طافح البشر واهب
فصدقتُ مأخوذاً وجئتُ وصيدها
أغالبُ خوفاً واندفاعةَ راغب
وأشعلت مصباحي فلما تكشفت عرفت نصيبي عند بيض المواقب
ودُرتُ كمنشيّ عليه وحيدا
تمالكت أنفاسي ابتسمت لصاحبي
وقلت جزائي يوم خدّر مسمعي منجم سوء بالأماني الكواذب
وأيضاً جزائي يوم حمّت بصيرتي وملكت أمري خائباً وابن خائب
فقال : مقادير وما تنزلت
وقمتَ وخابَ الحزمُ يا ابن التجارب
وعدتُ كأن الأرض حولي مآتمٌ
وليس عليها غيرُ باكٍ وناعب
أصانع أبناء السبيل وأشتكي تعثر أقدامي ورعشة غاربي
أراودُ يأسي والقضاء كخاتم وأسبحُ في بحر مخيف وناضب
أباعدُ عن نفسي حقيقة رجعتي وأجبر بلواها بشتى العصائب
وأحكي رؤاها في مضاجع ذابل ينام على جنبين صادٍ وساغب
ومرّ بما أبكي رحيلا مُرَزَّءاً جنيت الردى منه وشوك الجادب
ولاحت على مرمى العيون مواطني تحيةَ مشتاقٍ وفرحة آيب
هي الجنة الأولى وفيها منازلٌ تنسمتُ أهلي بينها وحبائبي
وناح شذاها من بعيدٍ فهزني وذكّرني عهد الصّبا ومآربي
وهاج زماناً كالربيع فشاقني تَرَنّح آصالي بهـا ومغاربي
وأنهارها تحت الظلال جواريا وفلكي عليها بين طاف وراسب
تموج بما فيها كأن غصونها على شنب ما بين راضٍ وغاضب
هي الجنة الأولى وتحت سمائها رأينا تباشير المنى والشبائب
مجالان هذا للشراب وللندى وذاك لأفراح الهوى والكواعب
وقلبان في صدري أزوح بجامد وأغدو بمنساب الإرادة ذائب
يفزعني مَسُّ اليقين ولونه وأومن مسحوراً بما هو رائبي
أميل مع الأهواء وسنان حالماً مكانٌ يناديني وآخر جاذبي
وقلتُ سأنسى في رُباها مَهالكاً
أضلّت صوابي واستباحت مضاربي
ولكن دخلناها فيا بؤس جنتي ويا بؤس إيماني وبؤس مثاوبي
هي الجنةُ الأولى ولستُ بتائه فهذي مغانيها وتلك ملاعبي
رجعنا إليها بعد همّ وغُربة وبعد ملمّات أشبن ذوائبي
وهأنا فيها لا ضميري صاحك ولا أملي بين الرياض بوائب
على بابها اليمون ظلّ كآبةٍ
وفي الساحة الكبرى عبيرُ النوائب
وأشهى جناها ليس فيه مذاقُه
وكوثرُها — لا كان — جمُّ الشوائب
وأشجارها الموتى غصون تهدّلت
وكانت عناقيد الثمار الأطايب
وأزهارها صُفرٌ عليها مَذَلّةٌ وأطيارها مبحوحة كالنوادب
وما كان منها دافقاً ردّ ماؤه وصاحبها أمسى وليس بصاحب
مرابعها جفّت وراحت أجادبا وكانت مزاراً للحيا والسواكب
خمائلها محزونةٌ وسماؤها تميلُ بأشباه النجوم النوارب
ومالت أعاليها وزارت رُبوعها عواصف شتى بين ساف وحاصب
تحوّل عنها أهلها وتناوحت بأبهى مجاليها ظِلاء النواعب
وجوهٌ كأحداث الزمان مخيفةٌ أطلت عليها من قصور خوارب
وتلك التي بالأمس كنا نُريدها ونسأل عنها كلّ آتٍ وذاهب
هي الجنة الأولى وكنتُ أمامها أحس بأن الكون بين جوانبي
وأشهدُ آفاقاً كباراً وعالماً عرفتُ به قلبي وأولى مجائبي
ونادمتُ أشواقي هنالك مواسماً أجِدُّ وألهو بالظنون اللواعب
وأرسلتُ أحلامي وراء غُيُوبه أخاف وأرجو مُبهمات العواقب
وفي النفس أهواء وفيها مواجد وفيها تهاويلٌ سدَدْن مذاهبي
وفيها تسابيحٌ لعرش أظلّني وفيك قيودي واستفزّ مواهبي
وألهمني حتى كأني مُنَوَّمٌ أزال حجاب السر عن كل غائب
وأنطقني حتى نطقتُ أضالعي ستعلن أسراري وتُفشي مآربي
وأسكتني حتى تجمّد خاطري وماتت بأعراق اللسان غرائبي
وغيّر حالاتي وصنّى مشاعري أحس كمخدور وأهذي كشارب
وأغرى بأسباب الحياة نوازعي وحرّكَ أوهامي وأذكى رغائبي
ونضّر أجوائي فأضحت خمائلا يفوح شذاها من صبا وجنائب
وتحظى بما دون القليل مطامعي فتُشرق آمالي وتصفو مشاربي
وأصبح والدنيا بصدري مباهج وأمسي وأفلاك الزمان مواكبي
هي الجنةُ الأولى وبات نسيمها روائح أنقاضٍ ودرجَ منادب